

" العزة "

ويمضى القرآن الكريم فى توجيهاته الراشدة وحثه على الأخلاق الكريمة ومن بين هذه الأخلاق القرآنية " العزة " فإن اعتزاز المسلم بنفسه ، ودينه ، وريبه وعقيدته ، وإيمانه ، هو كبرياء المسلم ، وعزة المسلم ، وهو مخالف لكبرياء السلطة والطغيان ، والظلم ، فالعزة التى يوجه إليها القرآن الكريم هى التواضع للفقراء والأنفة والشتم لدى الطغاة ، والمتغترسين الجبارين ، والترفع عن النفاق أو التذلل ، أو إهانة النفس لسلطان أو جائر ، والانخفاض الى خدمة المسلمين والتبسط معهم ، مع احترام الحق الذى يجمعه بهم ، لذا يقول الله تعالى :- ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُورَثُ ﴾ [سورة فاطر: ١٠٠]

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [١٧] إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ [١٨] فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [سورة النساء: ٩٨: ٩٩].

ويقول الإمام الشهيد سيد قطب: لقد كان هذا النص يواجه حالة واقعة فى الجزيرة العربية فى مكة وغيرها بعد هجرة النبى - ﷺ - وقيام الدولة المسلمة ، فقد كان هناك مسلمون لم يهاجروا ، حبستهم أموالهم ومصالحهم ، حيث لم يكن المشركون يدعون مهاجراً يحمل معه شيئاً من ماله ، أو حبسهم إشفاقهم وخوفهم من مشاق الهجرة حيث لم يكن المشركون يدعون مسلماً يهاجر حتى يمنعوه ، ويرصدوا له فى الطريق ، وجماعة أخرى حبسهم عجزهم الحقيقى من الشيوخ والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة للهرب ولا يجدون سبيلاً للهرب والهجرة ، ولقد اشتد أذى المشركين لهؤلاء الباقين من أفراد المسلمين ، وذلك بعد عجزهم عن اللحاق برسول الله - ﷺ - وصاحبه ، ومنعهما من الهجرة ، وبعد قيام الدولة الاسلامية ، وبعد تعرض الدولة المسلمة لتجارة قريش فى " بدر " وانتصار المسلمين ذلك الانتصار الحاسم ، فأخذ المشركين يسقون هذه البقية المتخلفة صنوفاً من العذاب والنكال ويفتنونهم عن دينهم فى غيظ شديد ، وقد فتن بعضهم عن دينه فعلاً واضطر بعضهم الى إظهار الكفر تقية ، ومشاركة المشركين عبادتهم وكانت هذه التقية جائزة لهم يوم إن لم تكن لهم دولة يهاجرون إليها متى استطاعوا ، فأما بعد قيام الدولة ، ووجود دار الإسلام فإن الخضوع للفتنة ، أو الالتجاء الى التقية وفى الوسع الهجرة والجهر

بالاسلام ، والحياة فى دار الاسلام ، أمر غير مقبول وهؤلاء هم الظالمون لأنفسهم ، لأنهم قاعدون للمحافظة على أموالهم ومصالحهم وإشفاقاً من مشاق الطريق ، ومتاعب الهجرة .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ... ﴾ [سورة النساء: ٩٧]

حيث أنهم حرموها الحياة فى دار الاسلام وهى حياة طاهرة نظيفة ، وفيها الحرية الكاملة والطمأنينة النفسية والراحة والاستقرار ، بعيداً عن الذل والهوان ، والإرباك العقلي والنفسى وأيضا البدني ، وهؤلاء قد توعدهم الله - سبحانه وتعالى - بالعذاب الشديد فقال تعالى : ﴿ ... فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (١٧) [سورة النساء: ٩٧].

وهذه الآية تعنى هؤلاء الذين فتنوا عن دينهم ، والقرآن الكريم يصور ذلك الموقف تصويراً حياً نابضاً بالحركة والحوار مع هؤلاء الذين فتنوا فى دينهم فقال تعالى :-

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا ... ﴾ [سورة النساء: ٩٧]

إن القرآن الكريم يعالج نفوس بشرية ، ويهدف الى استجاشة عنصر العزة ومطاردة عوامل الضعف والذل والهوان وذلك بقبول الأمر الواقع وذلك مثل الذى نراه اليوم فى واقعنا المعاصر من قبول العرب والمسلمين للذل والهوان ، وضياع العزة والكرامة العربية الإسلامية ، ونسيان تاريخهم الحافل بالانتصارات وسجلهم المملوء بالأمجاد العظيمة والفتوحات التى سجلها تاريخهم بأحرف من نور ، وقبلوا الذل والهوان خاصة ونحن نكتب هذه الكلمات يقرع سمعي هذا الخبر الذى يطفح بالذل واستخفاف واستهانة العدوا الاسرائيلى بالعرب والمسلمين فى كل أرجاء الأرض وهو محاصرة العدوا الصهيونى للمسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين ، مسرى النبى - ﷺ - والذى أمَّ النبى - عليه السلام - جميع الأنبياء وصلى بهم ، ورضي الأنبياء به إماماً وقائداً ونبياً ، وان دل هذا فإنما يدل على أن الأنبياء جميعاً رضوا به نبياً واماماً كما انهم آمنوا بما أنزل عليه فهو بذلك مسلمون جميعاً ، ومع ذلك لا ترى موقفاً صارماً حيال هذه الاستفزازات الصهيونية الماكرة من العرب والمسلمين فأين هم !!؟

إن الموت الزءام خير لهم من هذه الحياة ، حياة الذل ، والاستكانة والهوان ، ان بطن الأرض خير لهم من ظهرها ، وقد ذكرني هذا الموقف بضياع الأندلس المسلمة ، وسقوطها مملكة تلوا الأخرى ، والمسلمون يستنجدون بالمسلمين فى كل أرجاء المعمورة فلم يقف لنجدهم احد ، وفي ذلك يقول الشاعر العربى المسلم مُصَوِّراً ذلك الموقف المخزي ، والذى يشبه موقف العرب والمسلمين فى هذا العصر ، وتلك الآونة المحزنة ، والمؤسفة وكأن الشاعر

قد كشف له الحجاب حيث ان الأبيات تحكى واقعنا المعاصر، وما يحدث الآن من استيلاء الصهيونية العالمية على الحرم الابراهيمي ، وتطويق المسجد الأقصى تريده هدمه ، وإزالة معالمه ، فيقول الشاعر عبد الله السرندي :

وما لها من طول الدهر نسيان	تلك المصيبة أنست ما تقدمها
كأنها في مجال السبق عقبان	يا راكبين عناق الخيل ضامرة
لهم بأوطانهم عز وسلطان	وراعتين وراء البحر في دعة
قد سرى بحديث القوم ركبان	هل عندكم فيأمن أهل أندلس
وهم قتلى واسري فما يهتز إنسان	كم يستغيث بنا مستضعفون

وكان آخر إقليم سقط من بلاد الاندلس " الحمراء " وغادرها قائدها ويدعى " عبد الله " وامتطى صهوة جواده ، ويمين ناحية المغرب ثم بكى بكاءً مُراً ، وانتحب انتحاباً شديداً ، وتُسَمَّى إلى الآن " بزة المغربي " فقالت له أمه واسمها عائشة :

انك مثل النساء من مضاعا	لم نحافظ عليه مثل الرجال
-------------------------	--------------------------

فما أشبه الليلة بالبارحة ، فما هي ذا الاندلس قد ضاعت ، واكتفى المسلمون باستيراد الكابتن " مانويل جوزيه " ليدرب النادي " الأهلي " وهو نادي القرن فهو برتغالي والأندلس هي اسبانيا ، والبرتغال حالياً ، ثم ضاعت فلسطين والعراق ، وأذل المسلمون إذلالاً في البوسنة والهرسك ، وقامت مجازع عنية أمام ما يسمى بحقوق الانسان إن المراد بحقوق الإنسان هو الإنسان الكافر وليس سواه كما حوصرت كثرة كاثرة من بلاد الاسلام ، فهل آن الأوان لأن نستيقظ من رُقادنا؟! ونفيق من غفلتنا؟! ونؤب الى رشدنا؟! ليسترد المسلمون مجدهم ، وعزتهم وسيادتهم؟! أجل والله لقد آن .

هل سمعت المسلمين في القنوات الفضائية وهم يصرخون نساءً ورجالاً وأطفالاً ، شيباً ، وشباباً ، قائلين وإسلاماه حين سمعت بأذني وشاهدت ببصري هؤلاء يصرخون وإسلاماه قلت لهم وهم لا يسمعون قولي : تلك أيام قد خلت . أين المنتصر بالله؟؟ ، أين صلاح الدين؟؟ ، الذي أرسل له شاعر وقد كتب له على لسان المسجد الأقصى يقول له :

يأبها الملك الذي	لمعالم الصلبان نكس
جاءت إليك ظلامه	تسعى من البيت المقدس
كل المساجد طهرت	وأنا على شرفي منجس

فَجَيِّشَ صلاح الدين الجيوش ، وقصد المسجد الأقصى ، وحرره بعد احتلال دام "ثمانية وثمانين عاماً" وها هو ذا "المعتصم بالله العباس" وموقفه من الرومي الذي يساوم مسلمة في السوق على سلعة لها ، فيلطمها الرومي على وجهها فتخرساقطة على الأرض ، فتصيح قائلة "واعتصماه" فيلحق المعتصم لنجدتها ويحيش الجيوش ، ويفتح "عمورية" ويخرب "حصن زبرطة" ويأسر القائد "توفلس" فيهز هذا النصر اريحة الشاعر "حبيب بن أوس الطائي" فيقول مشيداً بالفتح ، بذلك الانتصار العظيم ، فيقول :

السيف اصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشيك والريب
يا يوم وقعت عمورية انصرفت منك المنى حفلا معسولة الحلب
أبقيت جد بني الاسلام فى صيد والمشركين ودار الشرك فى صيب

وفي الحرب العالمية نرى القائد "منتوجمرى" يضع حذاءه فوق قبر "صلاح الدين" ويقول له : ها نحن قد عدنا فقم يا صلاح ، ولوان يوجد فيه صلاح الدين حياً ما استطاع ذلك الحاقد الماكران يتفوه بهذه المقولة ، أو ان يصل الى مكان يوجد فيه صلاح الدين ولو كان في شرق الارض أو غربها ، إنها اليهودية الماكرة والصليبية الحاقدة والسؤال الآن ، هل يجدي نفعاً دعاء الصالحين ؟ وهل ينزل الله الطير الأباييل ؟ لا نقول فى ثقة تامة " لا " لن يتقبل الله دعاء مليارو مائتي مليون مسلم في العالم ، وأكثر من مائتي مليون عربي ولن ينزل الطير الأباييل ما دام هذا العدد موجوداً فوق سطح الأرض .

إنما يستجيب الله سبحانه حين يهب هؤلاء بأسلحتهم وكل طاقتهم سياسيا وعسكرياً واقتصادياً وقاتلياً وحينذاك يكلوهم الله برعايته ، ويصونهم بحفظه ، وينصرهم بقدرته ، ويحميهم بقوته ومساعدتهم ، يقول الله سبحانه ﴿...وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ...﴾ [سورة المجادلة: ٢٢] "وأيدهم بروح منه" فالروح هنا معناها النصر من الله - عزوجل ..

ومشهد "الاحتضار" بذاته مشهد ترتجف له النفس البشرية وتتحفز لتصور ما فيه وإظهار الملائكة في المشهد يزيد النفس ارتجافاً وحساسية والقاعدون الذين ظلموا انفسهم وقد حضرت الملائكة لتتوفاهم وهذا حالهم "ظالمى أنفسهم" وهذا وحده كفيل بتحريك النفس وارتجافها ، إذ يكفي أن يتصور المرء نفسه والملائكة تتوفاه وهو ظالم لنفسه ، وليس أمامه من فرصة أخرى لإنصاف نفسه ، فهذه هي اللحظة الأخيرة ، ولكن الملائكة لا يتوفونهم وهم ظالمون لانفسهم فى هدوء وصمت ، بل يقبلون ماضيهم ، ويستنكرون أمرهم ،

ثم يسألونهم فيما أضعوا أيامهم ولياليهم؟ وماذا كان همهم في الدنيا؟ " قالوا فيما كنتم؟" فيجيب هؤلاء المحتضرون على هذا الاستنكار جواباً كله مذلة، ويحسبونه معذرة على ما فيه من مذلة، " قالوا كنا مستضعفين في الأرض " لقد كنا أذلاء في الأرض لا حول لنا ولا قوة، ولا عزة ولا طول، بيد أن هذا الاعتذار غير مقبول البتة حين يجي الرد عليهم في قوله سبحانه: ﴿... أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا...﴾ [سورة النساء: 97]

ليس لديهم عذر حقيقي يقبل، أو عجز يسمح لهم بقبول معذرتهم، فليس لديهم العذر الذي يحملهم على قبول المهانة والذل، والفتنة عن الإيمان حيث ان أرض الله واسعة، وفيها متسع لأمثالهم للعيش في طمأنينة وعزة وكرامة، وإنما الذي جعلهم يتحملون الذل والمهانة حرصهم على أموالهم، ومصالحهم، وأنفسهم ذلك الذي جعلهم يسكنون ويقيمون في دار الكفر في ذلة ومهانة، مع ان أرض الله واسعة، والهجرة إليها ميسرة، وينتهي المشهد المؤثر بذكر النهاية المخيفة التي تتجلى في قوله تعالى: ﴿... فَأُولَئِكَ مَا وَلَّهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [سورة النساء: 97] ثم يستثنى القرآن من لا حيلة لهم في البقاء في دار الكفر والتعرض للفتنة، والحرمان من الحياة في دار الإسلام من الشيوخ، والضعاف، والنساء، الأطفال، فهؤلاء لهم رجاء في عفو الله ومعرفته ورحمته حيث إن هؤلاء لهم عذر مقبول عند الله وعند الناس لأنهم عاجزون عن الفرار والهجرة بدينهم إلى دار الإسلام، وقال تعالى: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَيْسْتَ تَبْتَغُونَ سَبِيلًا﴾ (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَظِيمًا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسِعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٠﴾ [سورة النساء: 98: 100] ويمضى هذا الحكم ويسرى إلى آخر الزمان، فهو ليس خاصاً بزمان معين، فهو حكم عام ينظم كل مسلم ومسلمة تناله الفتنة في دينه في أيه أرض، وتمسكه أمواله ومصالحه الخاصة، وأولاده وقرباته، أو إشفاقه من آلام الهجرة، ومخاوف التعب، ومحاذير الغربة متى كان هنالك دار إسلامية يستطيع العيش فيها، ومباشرة حقوقه الإسلامية وإقامة شعائر دينه من صلاة، وصوم، ويعيش في ظلال شريعة الإسلام، متمتعاً بحياة إسلامية رفيعة محافظاً على دينه، وإنسانيته، وكرامته بمنأى عن الذل والهوان ويقول " ابن كثير " هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراشي المشركين وهو قادر على الهجرة، وليس متمكن من إقامة الدين فهو ظالم لنفسه، مرتكب حراماً بالإجماع، وبنص هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ...﴾ [سورة النساء: 97] يعني بتركهم الهجرة.

فعن " سمرة بن جندب -" رضي الله عنه- قال : قال رسول الله - ﷺ - " من جامع المشرك مسكن معه فإنه مثله ."

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- ان رسول الله - ﷺ - رفع يده بعد ما سلم وهو مستقبل القبلة فقال " اللهم خلص الوليد بن الوليد وعياش بن أبي ربيعة، وسلمة بن هشام ، وضعفة المسلمين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً من أيدي الكفار ."

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال " إلا المستضعفين " قال :كنت أنا وأُمى ممن عذر الله- عز وجل - ونرى القرآن الكريم يحرض على الهجرة فيقول: " ومن يهاجر في سبيل الله فيجد في الارض مراغماً كثيراً وسعة " ففي الآيه تحريض على الهجرة وترغيب في مفارقة المشركين .

ويقول سبحانه: ﴿... وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ...﴾ [سورة النساء: ١٠٠] يعنى : ومن يخرج من بيته بنية الهجرة فمات في أثناء الطريق فقد حصل له عند الله ثواب من هاجر، كما ثبت في الصحيحين عن عمر بن الخطاب . رضي الله عنه- قال : قال رسول الله - ﷺ - : " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرء ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر إليه "

وهو عام في الهجرة ، وفي جميع الأعمال ، ومنه الحديث الثابت في الصحيحين في الرجل الذى قتل تسعة وتسعين نفساً ، ثم أكمل بذلك العابد المائة ثم سال عالم هل له من توبة ، فقال له : ومن يحول بينك وبين التوبة ؟ ثم أرشده إلى أن يتحول من بلده الى بلد أخرى يعبد الله فيه ، فلما ارتحل من بلده مهاجراً إلى البلد الأخرى أدركه الموت في أثناء الطريق ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقال هؤلاء إنه جاء تائباً ، وقال هؤلاء ! لم يصل بعد ، فأمروا ان يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أقرب فهو منها ، فأمر الله هذه أن تقترب من هذه ، وهذه ان تبتعد ، فوجدوه أقرب إلى الأرض التى هاجر إليها بشبر فقبضته ملائكة الرحمة وفي رواية أخرى : " انه لما جاء الموت بآء بصره إلى الأرض التى هاجر إليها ."

ويروى لنا " الزبير بن العوام -" رضي الله عنه- قال : " هاجر خالد بن حزام - رضي الله عنه - إلى أرض الحبشة فنهشته حية فمات فنزلت فيه " ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً ."

ويقول تعالى: ﴿ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً... ﴾ [سورة النساء: ١٠٠] وهذا ترغيب في الهجرة وهو أمر عام كما أومأنا إلى ذلك آنفاً ، فأرض الله واسعة ورزقه سابغ على العباد ، وقال تعالى: ﴿ يَعْبادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا بِإِنِّي آرِضِي وَسِعَةً فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ ﴾ [سورة العنكبوت: ٥٦] ويقول صاحب " التفسير الكبير " :- " ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم " فى هذا التوفى قولان : الأول : معناه تقبض أرواحهم عند الموت ، وعلى هذا القول كيف الجمع بينه وبين قوله تعالى فى الآيات الكريمة : ﴿ اللَّهُ تَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا... ﴾ [سورة الزمر: ٤٢] و﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوَةَ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [سورة الملك: ٢] . وقوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ ءَامُونَ ﴾ فَاجْنَبْكُمْ ثُمَّ يَمِينُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِنَّهُ تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٨] وقوله تعالى :- ﴿ قُلْ يَتُوفَّيْكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة السجدة: ١١] .
قلنا خالق الموت هو الله تعالى ، والرئيس المفوض إليه هذا العمل هو "ملك الموت" وسائر الملائكة أعوانه .

والقول الثاني : هو أن المعنى : توفاهم الملائكة يعنى يحشرونهم إلى النار وهو قول الحسن .

" ظالمى أنفسهم " فقد يراد بالظلم " الكفر " قال تعالى: ﴿...إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة لقمان: ١٣] وقد يراد به المعصية .
وروى أن النبى - ﷺ - بعث بهذه الآية إلى مسلمي مكة فقال "جندب بن حمزة" لبنيه " احملوني فأنى لست من المستضعفين ، ولا إنى لا أهدى إلى الطريق ، والله لا أبيت الليلة بمكة ، فحملوه على سرير متوجهين إلى المدينة وكان شيخاً كبيراً ، فمات فى الطريق . وهذا الأمر بالنسبة للقادرين على الهجرة أما غير القادر فلا شئ عليه حيث أنه يعد عاجزاً ، وغير قادر على الهجرة والعاجز عن الشئ غير مكلف به ، فأولئك عسى الله ان يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً ، إن نفر يلفظ " عسى " هنا بغير ويدل على أن ترك الهجرة فى هذه الأحوال أمر مضيق لا توسعة فيه .

إن العزة والكرامة من أبرز الخلال التى نادى بها الإسلام وعرَّسها فى المجتمع الاسلامى ، كما تعهد بنمائها ، وذلك بما شرَّعه من عقائد ، وما سنَّ من تعاليم ، واليهما يومئى سيدنا " عمر بن الخطاب " - رضى الله عنه - بقوله : أحب من الرجل إذا سم خطة حق أن يقول بما لك فيه " لا " ونرى المؤذن يصيح بالأذان خمس مرات فى اليوم والليلة ينادى قائلاً " الله اكبر ، " فى بداية الأذان ونهايته وما ذلك إلا ليتأكد ، ويوقن المسلم أن كل

متكبر بعد الله فهو صغير وان كل متعاضم بعد الله فهو حقير، فهذا النداء يرد الناس إلى رشدهم، وصوابهم كلما اطاشتهم الدنيا، وضللتهم متاهاتها الطامسة، وتوكيداً لهذه المعاني اختار الله - عزوجل - أسمى "العظيم" و"الأعلى" من أسمائه الحسنى ليكررها المسلم اثناء ركوعه وسجوده فيفرد المسلم رب العالمين بالعظمة والعلو، والعزة حق يقابله واجب، فاذا كلفت بعمل فاديته على أكمل وجه، وبضمير يقظ، ويخلق المسلم فلا سبيل لأحد عليك، ولا يستطيع رئيسك في العمل أن يتوجه إليك بكلمة نابية أو لفظ محرج فبذلك تستطيع أن تحتفظ بعزة نفسك أمام رؤسائك وقيادتك في العمل وخارجته وذلك حين تسد الثغرات التي ينفذ منها إليك، والمثل العربي يقول: "إياك وما يتعذر منه" يقول الله تعالى: ﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿سورة يونس: ٢٧﴾

واجتراح السيئات، وارتكاب المناكر، واقتراف الآثام سبيل الإهانة والمذلة وقد بين الله - عزوجل - أن الهزيمة في موقعة "أحد" كان من أسبابها ما ارتكبه بعض الصحابة - رضي الله عنهم - من مخالفات فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿سورة ال عمران: ١٥٥﴾. فالإسلام عندما أوصى المسلم بالعزة أرشده إلى أسبابها، ويسرله وسائلها، وافهمه ان العزة في طاعة الله، والمؤمن الذي يعلم ذلك ويعمل به من الواجب أن يأخذ نصيبه كاملاً في الحياة الرفيعة العظيمة، فاذا ما اعتدى عليه أحد، أو طمع فيه ظالم كان دفاعه عن نفسه جهاداً في سبيل الله، ومن ثم فان موت المسلم دون حقه شهادة في سبيل الله، جاء رجل إلى رسول الله - ﷺ - فقال: "يا رسول الله، أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي يعني يريد اغتصابه. قال: لا تعطه مالك، قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: قاتله، قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: فأنت شهيد، قال: أرأيت ان قتلته؟ قال: هو في النار" (١).

أجل فمن عزة المؤمن ألا يكون مستباحاً لكل طامع، وغرضاً لكل هاجم وكلاً مباحاً للظالمين، بل على المسلم ان يستमित دون نفسه، وماله وعرضه، وان أغرقت في سبيل ذلك

كثرة كثافة من الدماء ، وشرع الله الثأر من المظالم إغزازاً لجانب المهضوم ، وإيهانا لجانب المعتدى .

يقول تعالى : ﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمُنْعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [سورة الشورى: ٣٦: ٣٨] ، ويعني هذه التعاليم ، وتلك الإرشادات الربانية العظيمة فى القرآن المحكم آياته ، التى توفر لأصحابها العزة والكرامة فرادى وجماعات ، قال سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَحِزْوًا سَيِّئَةً سَبَيْتَهُمْ مِّثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة الشورى: ٣٩: ٤٠] .

فمن الأخلاق التى وجهنا إليها القرآن الكريم ان المسلم يغفرله اذا استغضبه من هو دونه ، وأقل منه ، كما من خلقه ان يؤدب المجترئين عليه المتطاولين على شخصيته ، حتى يكسر شوكتهم ، وينأى عن مخاطرهم ، وفى هذه الحال يجب أن يبرز قوته حتى يرهب المجرمين ، وله وقت ذاك ان يعفو وذلك عفواً لمقتدر ، فالخلق الذى تضمنته الآيات الأخيرة يخالف الخلق الذى تضمنته الآيات الأولى ، فالأولى تعنى التجاوز عنها فوات العائرين ، قال تعالى : ﴿ ... وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة الشورى: ٣٧] ، أما الآيات الأخرى فتقدم الجاني إلى القضاء ثم تصدر عليه العقاب حتى اذا انكسرت سطوته ، واختفت جراته وتضاءلت قوته ، وتمكن سيف القصاص من عنقه جاء الفضل ، بعد استقالة العدل فيكون ذلك زيادة فى عزة المسلم ، ومن العزة ألا يستكين المسلم ، ويذل نفسه فى سبيل مأرب دنيوي ، او تحقيق مطلب على يد من يستطيع ذلك ، قال - ﷺ - " اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس فإن الأمور تجرى بالمقادير " والبشر جميعاً لا يستطيعون منع شئ اعطاه الله ، أو كتبه لك وإنهم لا يستطيعون إعطاء شئ منعه الله ، اولم يكتبه لك ، فعلى المسلم أن يرد الأمور ومصايرها إلى الله - عز وجل - فكل قرار لا يتم إلا اذا أمضاه الله - عز وجل - قال تعالى : ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة فاطر : ٢] .

هذه هى الأخلاق فى القرآن الكريم التى تُوجهنا إلى العزة ، والكرامة والشهامة ، وعدم الركون إلى متعطرس جبار ، أو فاسق ظالم ، ولا يذل المسلم نفسه إلا لخالفه - عز وجل - ونهى الله - عز وجل - أن يتخذ المؤمنون الكافرين أعواناً وأنصاراً لما يتوهمونه فيهم من القوة ، ويتركون ولاية المؤمنين ، ويطلبون بموالة الكافرين القوة والغلبة ، وفى الحقيقة إن

الكفار لا عزة لهم ، فكيف تبتغى منهم فقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنَعُوكُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [سورة النساء : ١٣٩] .

فإن كان هؤلاء يطلبون لدى الكافرين العزة والمنعة والغلبة ، فإن العزة لله يؤتيها من يشاء ، فعليهم أن يطلبوها من الله - سبحانه وتعالى - بصادق إيمانهم ، وإتباعهم هدايته التي أرشد إليها أنبياءه ورسله ، وبينوا لهم أسبابها وقد أتاها المؤمنون حينما اهدوا بكتابه ، وساروا على سنته ، ونهجوا نهجه ، فلما عرضوا عن هذه الهداية التي اعتز بها أسلافهم ذلوا ، وضعفوا ، وخضعوا لعدوهم وصار منهم منافقون يوالون الكافرين يبتغون عندهم العزة والشرف وما هم لها بمدركين ، وحقا انه من اعتز بغير الله ذل ، وما نشاهده في عصرنا هذا خير شاهد ودليل على صدق هذا الكلام ، وهو واقع لا يستطيع أحد ان ينكره ، اوحتى يجادل أو يمارى فيه ، وصدق الله حين قال " أأنتم اعلم أم الله " !!!؟؟

وقد حذر القرآن الكريم قائلاً : يا معشر المؤمنين من يرجع منكم عن دينه الحق ، ويبدله بدين آخر ويرجع عن الايمان إلى الكفر ، فسوف ياتى الله مكانهم بأناس مؤمنين يحبهم الله ويحبون الله رحماء متواضعين للمؤمنين ، أشداء متعززين على الكافرين .

يقول " ابن كثير " : " وهذه صفات المؤمنين الكامل ان يكون أحدهم متواضعاً لأخيه متعزلاً على عدوه مثل قوله تعالى : ﴿ ... أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ ... ﴾ [سورة الفتح : ٢٩] .
ومن علامة حب الله تعالى للمؤمن أن يكون لئین الجانب ، متواضعاً لإخوانه المؤمنين ، ومتصفاً بالقوة حيال المؤمنين والكافرين ، يجاهدون لإعلاء كلمة الله ، ولا يبالون بمن لامهم ، فهم طلاب في دين الله ، لا يخافون في ذات الله أحداً ، ومن اتصف بهذه الأوصاف الحميدة فإنما هومن فضل الله عليه وتوفيقه له ، والله - سبحانه وتعالى - واسع الأفضال والإحسان ، عليه بمن يستحق ذلك .

فقال - سبحانه وتعالى : ﴿ يَتَّخِذُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [سورة المائدة : ٥٤] .

ومن التوجيهات القرآنية الكريمة ، والإرشادات الإلهية العظيمة التي توجه المسلم للاستمسك بالعزة حيث ان العزة لله ، ولرسوله ، وللمؤمنين ، فقد قال الكافرون لئن رجعنا من هذه الغزوة وهى " غزوة بني المصطلق " وعدنا إلى المدينة المنورة وهى بلدنا لنخرجن منها محمداً وأصحابه ، وصاحب هذه المقولة " عبد الله بن أبى بن سلول " زعيم المنافقين - وسلول - اسم لأمه ، وعنى بالأعز نفسه وأتباعه ، وعنى بالأذل رسول

الله - ﷺ - وأصحابه ، يقول المفسرون وأهل العلم ، لما قال " ابن سلول " ما قال ورجع إلى المدينة ووقف له ولده " عبد الله " على باب المدينة واستل سيفه فجعل الناس يميرون به ، فلما جاء أبوه قال له ابنه " عبد الله " وراءك والله لا تدخل المدينة أبداً حتى تقول ان رسول الله هو الأعز ، وأنا الأذل ، فقالها ، ثم جاء إلى رسول الله - ﷺ - فقال : يا رسول الله بلغني إنك تريد ان تقتل أباي ، فان كنت فاعلاً فمربي فأنا احمل إليك رأسه ، فقال له رسول الله - ﷺ - بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا ، والله - عز وجل - القوة والغلبة ، ولن أعزه وأيده من رسوله والمؤمنين ، وليست لغيرهم ، والصيغة تفيد الحصر .

يقول القرطبي " توهموا إن العزة بكثرة الأموال والأتباع فيبين الله - عز وجل - ان العزة والمنعة لله ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لفرط جهلهم وغرورهم ، وعمى قلوبهم لا يعلمون ، وغاب عنهم لطيش عقولهم ، وفساد نياتهم ، ان العزة والغلبة لأوليائه دون أعدائه . فقال تعالى : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة المنافقون: ٨].

هذه الأخلاق في القرآن الكريم الذي يحافظ علي المؤمن ، ويصون كرامته ويحافظ عليه من أن يتعرض للذل ، والمهانة ، والضعف ، فلو أن المسلمين استمسكوا بهذه القيم ، وتلك الأخلاق القرآنية لعز المسلمون وسادوا ، وعاشوا حياةً ملؤها العزة والكرامة .